

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (25- 49): تفسير الآية 45-49، القصاص وحفظ القرآن من التغيير والتزوير.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-03-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

القاتل يبقى حياً والمقتول يبقى حياً حينما يشرع أن القاتل يقتل:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا)

أي شرعنا لهم. على أي كلمة تعود (فيها)؟ الآية التي قبلها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ فَأُولَئِكَ لَهُمُ النَّاصِحَاتُ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ كُنْ فاعملوا قالوا نعم أُولَئِكَ نَجْزِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)

أي في التوراة.

(أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

أي إذا أيقن القاتل أنه سيقتل فلا يقتل، فإن لم يقتل بقي حياً، وإذا أيقن القاتل أن القتل ينتظره إذا قتل أبقى على من سيكون ضحيته حياً، فالقاتل يبقى حياً، والمقتول يبقى حياً، حينما يشرع أن القاتل يقتل.

العالم اليوم يقترب من الدين لا عن إيمان بالدين ولكن عن تحقيق لمصالحه:

أيها الأخوة، الإنسان أحياناً يجتهد، وقد يحاول أن يأتي بتشريع جديد، وحينما ألغي حكم الإعدام من بعض الدول تفاقمت الجرائم بشكل واضح جداً، فهذا يقتل عشرين شخصاً، وهذا عشرة، وهذا يدخل إلى مدرسة ابتدائية ويقتل معظم الطلاب، فحينما يكون السجن هو العقاب ففي السجن بقي الإنسان حياً، على كل هذا تشريع خالق الأكوان، الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الخبيرة.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

والعالم اليوم يقترب من الدين لا عن إيمان بالدين، ولكن عن تحقيق لمصالحه، لأن الذي خلق الإنسان هو أعلم به، أعلم بما يردعه، أعلم بما يمنعه، من أن يفعل كذا وكذا فالله عز وجل يقول:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ)

تقتل:

(بِالنَّفْسِ)

والقاتل يقتل، وأن العين تفتقاً بالعين، وأن الأنف يجده بالأنف، وأن الأذن تصلن بالأذن، وأن السن تخلع بالسن:

(وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)

أي الجرح أيضاً يقتص به بجرح، لكن هذا الحكم حكم العدل، فأين الإحسان؟ والله عز وجل:

(يَاْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 20]

من حكم الله أن الذي قتل له إنسان هو ولي المقتول يجب أن يباشر القتل بيده:

من حكم الله عز وجل أن الذي قتل له إنسان هو ولي المقتول، يجب أن يباشر القتل بيده، لأن في هذا شفاء له، والإنسان حينما يملك أن يقيم حد القتل بيده قد يعفو، والحالات التي تنتهي بالعفو لا تعد ولا تحصى، حينما يشعر ولي القتل أنه بإمكانه أن يقتص من قاتل ابنه، ويوضع الأمر بيده طبعاً برقابة وبضوابط كثيرة جداً كما هو مطبق في بعض البلاد الإسلامية، في الأعم الأغلب يعفو، لأنه حينما سلمناه أمر أن يأخذ بيده بالقصاص شفي صدره، بينما في بعض البلاد الأخرى التي يقتل فيها القتل تثار الثارات بين أطراف الأسر، وقد لا تنتهي إلا بعدد كبير من القتلى، هذا شرع الله عز وجل:

الدرس (25 - 49): تفسير الآية 45-49، القصاص وحفظ القرآن من التغيير والتزوير.

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا)

لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يدعونا إلى الإحسان، والقاعدة أيها الأخوة أن الله عز وجل حينما قال:
(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

من صفات المؤمن أنه ينتصر:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 40]

حينما يعفو صاحب الدم، ويغلب على ظنه أن عفوه يصلح من عفا عنه فينبغي أن يعفو، وعندئذ يتولى الله مكافأته.

العفو مشروع في الإسلام لكن إقامة العدل قسري والإحسان طوعي:

رجل من زعماء القبائل اسمه ثمامة، ألقى القبض عليه من قبل بعض الصحابة في سرية كانوا فيها، لكنهم قبضوا عليه ولا يعلمون من هو، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: ثمامة! قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا عندك؟ فقال ثمامة: إن تقتل تقتل ذا دم - كان متورطاً بقتل بعض أصحاب رسول الله - إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكرك، وإن أردت المال فخذ منه ما تريد، تركه النبي مقيداً، ومر به في اليوم التالي، قال: ما وراءك يا ثمامة؟ فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكرك، وإن أردت المال فخذ منه ما تريد، في اليوم الثالث سأله النبي: ما وراءك يا ثمامة؟ قال: كما قلت البارحة، فعفا عنه النبي، فخرج، وعاد بعد قليل، يبدو أنه اغتسل، ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن إسلامه، قال: يا رسول الله، والله ما كان من رجل أبغض إلي منك، والآن ما من رجل أحب إلي منك، وما كان دين أبغض إلي من دينك، والآن دينك أحب إلي من أي دين. العفو مشروع في الإسلام، لكن إقامة العدل قسري، بينما الإحسان طوعي، فإله عز وجل العدل:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ)

أي له أن يقتل فعفاً، وله أن يقتص لعين، أو لأنف، أو لأذن، أو لسن، فعفاً، وله أن يقتص لجرح فعفاً، فهذا الذي يعفو يكفر الله له من ذنوبه بقدر ما عفا:

(فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ)

وكان العفو شيء يتصدق به:

(فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

حينما ترد قضية من قضايا العقائد في الإسلام فهذا كفر:

لو استعرضنا أيها الأخوة هذه الآيات الثلاثة، الآية الأولى حينما قال الله عز وجل:
(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ
بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا
قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ)

أنت حينما ترد قضية عقديّة، أو حينما ترد قضية من قضايا العقائد في الإسلام، حينما ترد ربوبية الرب العظيم، أو حينما ترد إلهية الإله العظيم، أو حينما ترد كتاباً أنزله الله عز وجل، فهذا كفر:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ)

لكن حينما لا تقتص من القاتل، أو ممن تسبب فيه فقاً العين، أو جدد الأنف، أو صلن الأذن، أو خلع السن، أو إيقاع الجرح، فهذا ليس كفراً، ولكنه ظلم شديد:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ)

الذي يتميز به نبينا محمد أن المعجزة التي جاء بها مطابقة للكتاب الذي أنزله الله عليه:

قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْبَاقِلِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

سيدنا عيسى جاء بعد سيدنا موسى، معنى قفينا أي جاء بعده:

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ)

الإنجيل يصدق ما في التوراة، والقرآن يصدق ما في التوراة والإنجيل، لأن المصدر واحد، إلا أن الحقيقة التي ينبغي أن تكون واضحة جداً هو أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل قوم نبياً يوم كان التقاطع بين الأمم، أما حينما صار التواصل جعل نبياً واحداً، وجعله آخر الأنبياء لكل أمم الأرض.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ)

[سورة سبأ: 28]

لأن الله علم أنه سيكون ثمة تواصل بين بني البشر، الأرض الآن سطح مكتب، أي شيء يحدث في أطراف الدنيا يصلك بعد ثوان من وقوع الشيء، يصلك صوتاً وخبراً وصورة، والأرض كلها في متناول يدك، إذاً الله عز وجل جعل نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته لكل الناس أجمعين، إلا أن الذي يتميز به النبي عليه الصلاة والسلام أن المعجزة التي جاء بها مطابقة للكتاب الذي أنزله الله عليه.

لكل قوم نمط من المخالفات والمعاصي وجاء التشريع معالماً لهذا النمط بالذات:

سيدنا عيسى معجزته إحياء الموتى، بينما الكتاب الذي بين يديه هو الإنجيل، وسيدنا موسى معجزته العصا، بينما الكتاب الذي بين يديه هو التوراة، هناك انفصال بين الكتاب والمعجزة، وسيدنا عيسى وسيدنا موسى كلفاً، وكلف بالمقابل أتباعهما بحفظ التوراة والإنجيل بأمر تكليفي، لا بأمر تكويني، لذلك نفذ الأنبياء الكرام هذا الأمر، ولم ينفذه أتباعهم، فطراً على التوراة والإنجيل تغيير وتبديل، وهذا ما جاء في القرآن الكريم، أما نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولن يأتي كتاب بعد القرآن يصح التغيير الذي تم فيه كما كان في السابق، لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، ولأن كتابه الذي جاء به القرآن الكريم خاتم الكتب المنزلة، ولأن المعجزة هي نفسها الكتاب الذي جاء به، لذلك تولى الله حفظه بأمر تكويني، لذلك لا يمكن لأحد كائناً من كان إلى يوم القيامة أن يغير في القرآن حرفاً ولا حركة، وذكرت لكم في الدرس السابق أن هناك دراسات متعلقة بنظم القرآن الكريم تؤكد أنه لو غير حرف واحد لفسد نظام القرآن كله:

(وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْبِئْرَ فِيهِ هُدًى وَنُورًا)

(

أيها الأخوة، ما دام الأقوام في تباعد فقديماً كان لكل قوم مشكلات، قوم لوط عليه السلام انصرفوا في العلاقات المثلية، قوم آخرون بخصوا الكيل والميزان، قوم آخرون أكلوا أموال الناس بالباطل، فلكل قوم نمط من المخالفات والمعاصي، وجاء التشريع معالماً لهذا النمط بالذات، وهذا يؤكد قوله تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

[سورة الرعد: 7]

ويؤكد قوله أيضاً:

(لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)

جاء القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة وناسخاً لها يعالج قضايا البشر كافة:

إلا أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كما قال الله عز وجل:
(وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ)
الهدى والنور في الإنجيل غير الهدى والنور في التوراة، لأن التوراة نظمت العلاقات المادية لليهود، فأصبحوا ماديين، إذا هم بحاجة إلى شحنة روحية، فجاء الإنجيل بهدى ونور يختلف عن الهدى والنور الذي جاء به التوراة، هنا تنظيم علاقات مالي، هنا شحنة روحية، فجاء القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة، وناسخاً لها، يعالج قضايا البشر كبشر مجتمعين، ويعالج هذه القضايا إلى يوم الدين.

(وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

هناك ملمح لطيف جداً في الآية أن الإنجيل فيه هدى ونور:

(وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

لمن أراد أن يتقي الله عز وجل، هناك طلب أولي، أنت حينما تريد أن تتقي الله، حينما تريد أن تعرف الله، حينما تريد أن تطيع الله، حينما تريد أن تسأل: لماذا أنا في الدنيا؟ الآن أي شيء ينفعلك، أية آية تلك، أية موعظة تهزك، أية حادثة تثيرك، لأنك اتخذت قراراً أولياً بطلب الحقيقة.

ردّ العقائد كفر وردّ حقوق البشر ظلم وردّ العبادات فسق:

أيها الأخوة، قضية دقيقة جداً، أنت إذا أردت الحقيقة، أردت الحق، أردت الهدى، أردت أن تحقق الهدف من وجودك، أردت الله والدار الآخرة، هذا قرار أولي، إذا أي شيء بعد اتخاذك هذا القرار ينفعلك ويرقى بك، ويمدك بعلم وبطاقة وبإرادة. أما حينما لا تتخذ هذا القرار الأولي لو كنت في أكبر محطة فضاء في الأرض، وترى بعينك المجارات البعيدة جداً، ولو كنت على مجهر الكتروني ترى الخلية مكبرة أربعة آلاف مرة، وحينما ترى بالتلسكوبات والميكروسكوبات عجائب خلق الله عز وجل لا تهتدي، وما من مثل يقرب هذه الحقيقة من أنك إذا أردت الحقيقة، وسعيت إليها كنت كآلة تصوير فيها فيلم يلتقط الصورة، أما إذا لم ترد الحقيقة، ولم تسع إليها كنت كآلة تصوير ليس لها فيلم، فمهما فتحت العدسة مئات المرات فليس لهذه الصور أي أثر في الآلة، لذلك الله عز وجل يقول:

(وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

الذي لا يحكم بما أنزل الله إن كان عدم الحكم متعلقاً بالعقائد فهذا كفر، والذي لا يحكم بما أنزل الله إذا كان عدم الحكم متعلقاً بالحقوق فهذا ظلم، والذي لا يحكم بما أنزل الله إن كان عدم حكمه متعلقاً بالعبادات فهو فسق، ردّ العقائد كفر، وردّ حقوق البشر ظلم، وردّ العبادات فسق:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

ردّ العقائد كفر وردّ حقوق البشر ظلم وردّ العبادات فسق:

أيها الأخوة:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

الآن الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

أي القرآن، أي المعهود، تقول: هذا الرجل، وتكلم هذا الرجل، الألف واللام في الكلمة الثانية للعهد، المعهود، نكون في دائرة نقول: جاء المدير، أي مدير؟ مدير الدائرة، نكون في احتفال نقول: جاء الوزير، أي وزير؟ المعني المعهود، فهذه أل العهد، فنحن بيننا معهود أن الكتاب الذي أنزل على رسول الله هو القرآن:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

بالحق، أي أن هذا القرآن لا يستطيع أحد تحريفه، ولا تغييره، ولا إضافة شيء عليه، ولا حذف شيء منه لأن الله تولى حفظه بأمر تكويني، والدليل: أن العالم كله يهتم بالقرآن وطباعته وتيسيره بشكل لا يصدق، مؤسسات كبيرة جداً.

ترتيب الآيات وترتيب السور ترتيب توقيفي:

القرآن يطبع بأحلى الخطوط، ويضاف إلى نصه الحركات والسكنات وأحكام التجويد بشكل رائع، ثم يترجم إلى جميع اللغات، وبأحجام وأشكال وأساليب لا يصدقها العقل، هذا كله تنفيذ بحكمة حكيم من الذي تولى حفظه، الآن أي برنامج تجد فيه البحث، يمكن أن تبحث عن كلمة في القرآن الكريم، فتأتي كل الكلمات في كل الآيات، يمكن أن تقتني حجماً صغيراً جداً يسمعك كلام الله عز وجل بقراءة أشهر القراء، والنص على الشاشة، وحجمه حجم صغير جداً، فهناك وسائل للقرآن طباعية والإلكترونية وجدارية وبأحجام وأشكال وبخطوط وبتجمات تفوق حد الخيال، لأن الله تولى حفظه، ولأن الله تولى تيسيره للناس.

الدرس (25 - 49): تفسير الآية 45-49، القصص وحفظ القرآن من التغيير والتزوير.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

[سورة القمر: 17]

والذي يدهشك أنك إذا سافرت إلى بلاد بعيدة شرقاً تستمع إلى القرآن الكريم من أفواه الطلاب بشكل لا يصدق العقل، ولا يفهمون كلمة واحدة باللغة العربية:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

[سورة القمر: 17]

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

بالحق أي بالثبات، القرآن الذي بين أيديكم بكل طبعاته، وكل أشكاله، هو الكتاب نفسه الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إن ترتيب الآيات ترتيب توقيفي، حتى إن ترتيب السور ترتيب توقيفي، مع أنه نزل منجماً فكان جبريل عليه السلام يقول: يا محمد ضع هذه الآية في المكان كذا، وهذه الآية في المكان كذا، ترتيب الآيات وترتيب السور ترتيب توقيفي.

لا يمكن أن تتجح حالة من حالات تزوير أو تبديل القرآن الكريم لأن الله تولى حفظه:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

لكن لا يعني هذا الكلام أنه لا تجري محاولة للتغيير، لأن الحفظ لا يعني عدم وجود محاولة، ولكن الحفظ يعني عدم نجاح المحاولة، لذلك قبل خمسين عاماً تقريباً طبع خمسين ألف نسخة من المصحف بحذف كلمة واحدة، ومن يبتغي الإسلام ديناً فلن يقبل منه، بحذف كلمة غير، والنسخ جمعت وأحرقت، الكلام الدقيق أنه لا تتجح حالة من حالات التزوير أو التبديل، لأن الله تولى حفظه، هذه حكمة أرادها الله عز وجل أنه ما منع المحاولات، ولكن منع نجاحها، أما أن تضاف كلمة أو أن تحذف كلمة، وأن يكون الكتاب بين أيدينا، ولا ننتبه لذلك هيأ الله لهذا الكتاب علماء كبار وعندهم باع طويل، وعندهم جهد كبير، وعندهم صبر مديد، وعندهم طاقات كبيرة جداً من أجل حفظ هذا الكتاب:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ)

الكتاب الثاني جنس الكتاب، آل الجنس، أي كتاب نزل قبل القرآن هو كتاب، بمعنى أن الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل القرآن اسمه الكتاب، أي جنس الكتاب، تقول: التمر، أي جنس التمر، الألف واللام هنا ليست عهدية ولكن جنسية:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)

لأنه كتاب خاتم، ولأنه كتاب لكل الأمم والشعوب، ولأنه كتاب إلى نهاية الدوران، إذاً كل حاجات الشعوب، وحاجات الأقوام في هذا الكتاب، وأنت حينما ترى بعض الأخوة الذين آمنوا في بلاد الغرب، كيف يستمتعون بقراءة القرآن، وكيف يذوبون من خشية الله يتأكد لك هذا الذي أقوله لك الآن.

الحق لا يتعدد لكن الأهواء تتعدد:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ)

يا محمد:

(بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

أي لا تجاملهم، الحق أحق أن يتبع، والأهواء تختلف، الحق لا يختلف، الحق لا يتعدد لكن الأهواء تتعدد، أي بشكل أو بآخر حقائق العلم لا اختلاف فيها أبداً في العالم كله، حقائق الفيزياء والكيمياء، مثلاً الذرة في كل بلاد الأرض، شرقاً وغرباً، الحقائق التي يعرفها العلماء في بلاد متخلفة كالحقائق التي يعرفها العلماء في بلاد متقدمة، وقوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والطب والهندسة قوانين مضطربة وشاملة وموحدة في العالم كله، لكن لماذا تقوم الحروب؟ لأن الشعوب لها أهواء، حينما تتبع أهواها تقتتل، أما حينما تتبع العلم لا تقتتل، لذلك الله عز وجل قال:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

مبدأ الطائرة، مبدأ السيارة، مبدأ نقل الصوت، مبدأ البث الإذاعي، أي مبدأ بأي مكان في العالم موحد ومطبق كما هو مطبق في أي بلد آخر، أما الخلافات في الأطروحات الفكرية، والعقائدية، والاجتماعية، والنفسية، والصراعات الطبقيّة، والصراعات بين الأمم والشعوب، والصراع على الثروات، والصراع على البترول، والصراع على الهيمنة، والصراع على السيطرة، هذه كلها أهواء.

المحبة أساس العلاقة بين الخالق والخلق:

لذلك:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً)

لو أن الإنسان يعتقد أن الله قادر على هداية الخلق هذا اعتقاد صحيح، ولكن قد يسأل لم لم يهدهم؟ لأن الله ما أرادنا أن نأتي إليه قسراً، ما أرادنا أن نحمل على الطاعة قسراً، هذه الطاعة القسرية لا تسعد

صحابها، أرادنا أن نأتيه طوعاً، أرادنا أن نأتيه محبين، أرادنا أن نأتيه مختارين، أرادنا أن نحبه، المحبة أساس العلاقة بين الخالق والخلق.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران: 31]

يحبهم ويحبونه، إذاً:

(وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

مثلاً: ألا يستطيع عميد كلية العلوم أن يوزع على الطلاب أوراق الامتحان، وقد طبع عليها الإجابة الكاملة؟ طبعاً، بالمطبعة، وأن يكلف الطالب أن يكتب اسمه ورقمه فقط ويخرج، والعلامات مئة بالمئة لجميع الطلاب دون استثناء، ممكن، ما قيمة هذا النجاح؟! لا قيمة له إطلاقاً لا عند إدارة الجامعة، ولا عند الطلاب، ولا عند أولياء الأمور، ولا عند الناس، نجاح ساقط لا قيمة له.

سعادتنا أن نأتي الله طائعين لا مكبلين:

لو أن الله أرادنا أن نهدي قسراً لهدانا قسراً، ولو شئنا أن نلغي اختياركم، وأن نلغي تكليفكم، وأن نلغي حريتك، وأن نلغي مبادرتكم:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

لو أراد الله أن يجبرنا على شيء فما أجبرنا إلا على الهدى، ولكن جعلنا مختارين، جعلنا أصحاب إرادة، نؤمن أو لا نؤمن، نشكر أو لا نشكر، نصلي أو لا نصلي، نصدق أو لا نصدق:

(وَكَيِّنْ لِيُبْلِغِكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

ليمتحنكم.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَالِيهَا)

[سورة البقرة: 148]

لأن سعادتنا في اختيارنا، لأن سعادتنا في حريتنا، لأن سعادتنا أن نأتي الله طائعين لا مكبلين.

قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

ليمتحنكم، يعطي المال لفلان، فلان ينفقه على ملذاته، وعلى شهواته، ويحرمه للفقراء، وفلان يوظفه في أعمال الخير، المال واحد، يعطي الصحة لفلان فيستهلكها في المعاصي والآثام، ويعطي الصحة لفلان فيستهلكها في الطاعات والعبادات:

(لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

يعطي الإنسان أولاداً و ذرية فيربيهم على طاعة الله، ويعطي إنساناً آخر أولاداً و ذرية فيربيهم على التمثيل والرقص والغناء والموسيقى، أليس كذلك؟

(لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

يهبكم تمكيناً في الأرض فبعض الذين يمكنون في الأرض يقيمون العدل، ويتواضعون، وبعض الذين يمكنوا في الأرض يتغطرسون، ويستعلمون، ويقتلون، ويبترزون أموال الناس بالباطل كما ترون فيما يجري في العالم من طغيان و قتل ونهب وسلب وإفكار وإضلال وإذلال.

كل جماعة تدعي أنها على حق لكن الله وحده سيفصل بين عباده يوم القيامة:

قال تعالى:

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

أنتم مخيرون:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

بالنهاية نحن جميعاً نرجع إلى الله، وسوف يفصل الله بيننا، وسوف يحاسبنا على كل حركة، وسكنة، وكلمة، وغمز، ولمز، وعبوس، وابتسامة.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

كل يدعي وصلاً بليلى، كل جماعة تدعي أنها على حق، لكن الله وحده سيفصل بين عباده يوم القيامة، ليس هناك عصر كثرت فيه الأطروحات والضلالات والترهات والمشكلات كهذا العصر، لكن الحمد لله على وجود الله، الحمد لله أن الله سيفصل بين عباده يوم القيامة.

مشكلة المسلمين في العالم اليوم أن الإسلام كشكل وكتراث مقبول أما كمنهج فمرفوض:

قال تعالى:

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

قال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينا إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاتَخْذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 73]

هذه مشكلة المسلمين في العالم اليوم، يسمح لنا أن نقيم شعائر الإسلام، وأن تكون هناك مساجد، ومؤتمرات، ومؤلفات، ومكتبات، ولكن لا يريدوننا أن نقيم شرع الله في حياتنا، الإسلام كشكل، كفلكلور، كتراث مقبول، أما كمنهج فمرفوض، لذلك:

(وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

ما يجري الآن من فسق وفجور في العالم بكل قاراته شيء لا يصدق، لذلك:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

ما لم تشعر بالغبية في هذا العصر الذي ملئ فساداً وانحرافاً وانحطاطاً وإباحية فلست مؤمناً، ما لم تشعر بالغبية فلست مؤمناً، إن كنت منسجماً مع ما يجري، ومع ما يعرض، ومع ما يمثل، ومع كل البرامج، ومشارك بكل برنامج ومستمتع بما يجري فاعلم أنك على خطر شديد، وأن صلاتك الجوفاء لا تقدم ولا تؤخر.

التغيير والتزوير الآن لا بالنص ولكن بالتأويل:

الآن يا أخوان هناك حالة اسمها الخلط، خلط الأوراق، أي كل شيء مباح، وأنت مسلم، كل شيء مباح وأنت مؤمن، وكل شيء مباح والصلاة لوحدها، والقرآن وحده افعل ما بدا لك، انغمس في لذاتك حتى قمة رأسك وأنت مؤمن ومسلم، وإيمانك بقلبك، من الداخل فقط، هذا الخلط الذي نعيشه اليوم:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

هنا يوجد سؤال لطيف: ألا يعتبر التحريف للقرآن ما يحاوله البعض في أيامنا هذه من تفسير القرآن بغير مواده؟ هم لا يستطيعون تحريف النص، ولكنهم يحرفون التأويل، أخي لم لم تصل؟ أنا أيقنت بوجود الله، أن الله يقول:

(وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر: 99]

انتهى أنا أيقنت، لم لم تصل؟ قال:

(الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

نحن لسنا ممكنين في الأرض، الآن التغيير والتزوير لا بالنص، ولكن بالتأويل

والحمد لله رب العالمين